في سياق تبذيرها في حياة الاخرين ، وهكذا تتحول اناشيد الفنان الى نهر كريم .

ان الذين عرفوه ، عن كثب ، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل ، وكانوا يعرفون ايضا حرصه المرهق على تحقيق ذاته الفنية ، كان يقوم بكل الاعمال العامة طيلة النهار ، وفي اخر الليل ... في اول الفجر كان يذهب الى كتابته « الخاصة » ، الى كتابته الفنية ، فلم يكن متاحا له ان يتخصص بشكل علني ، كان يحترف الكتابة سرا ، لماذا ؟ لانه فلسطيني ... ببساطة لانه فلسطيني .

لم يقل احد ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم ، ساقول : ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم ، ذلك من فرط ايمانهم بفاعلية الادب الذي قدم لهم ، ومنهم ، تعويضا عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا الا كلمات ، وذلك لانه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة ، نادرا ما يسطو الوطن ، كما يسطو على ادب الفلسطينيين ولذلك ، يدرك الفلسطينيون ، ويحق ، انهم هم الذين خلقوا ادباءهم ... ولذلك ايضا يطالبونهم دائما بالمواطنية المثالية وبالطاعة الفولاذية ، ولا يسمحون لهم في ان يكونوا اقل من جنود او قديسين . ومن هذه العلاقة الصارمة ، من هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الاديب الفلسطيني نفسه « يسرق » حرفة الادب سرا ، وفي النهار علية ان يمارس اشكالا اخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن !

هكذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابته الفنية من الساعات المخصصة لنومه ، ولم تكن تلك الكتابة الا نتاج علاقته بفلسطين - الوطن والحلم والصراع والجماهير والمنفى ، كان اكثر من كاتب ، ولكن ما افدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف - للتمييز - بين الكاتب والمناضل ، كأن يقولوا : كان كاتبا ومناضلا ، ليس الامر في مثل هذا التفصيل ، فقد كان غسان كنفاني كاتبا مناضلا .

كثيرا ما يجابه الكاتب الفلسطيني باسئلة تأتيه من البراءة او الاتهام ، هل انت كاتب ام مناضل ؟ في مرحلة تاريخية معينة يحدد الكاتب المناضل بانه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية .. عن حركة الجديد ، وغالبا ما تكون اداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقوى الثورة هي الكتابة ، وقد بقي غسان كنفاني مطاردا بهذا السؤال الى ان بلغ الشهادة ، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان .

كان نشاطه الكتابي متعددا ، والطريقة التي سفك فيها دمه محرومة من الوصف ، لقد رسم جسده المعزق حالات القضية الفلسطينية .. لقد حقق الاسطورة .

كم من صديق رثيت ، ولكن لم أحس بأنني ارثي نفسي ، فأعيد صياغة حياتي ، الا عندما حاولت الامساك بطرف هذا البركان : غسان كنفاني ، ماذا بوسعك ان تفعل ؟ حقا ، ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم ، ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة او الفعل الهائل هو الذي خلق ، منذ القدم ، تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل ، ليس الخطأ ، دائما ، ان نقدم اجابة مخطئة ، احيانا وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال .

وان الموت حادث ، ولكن هنالك نوعا من الموت يأخذ شكل الاجابة على معضلة او مقارنة ، وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين الى دلالات ورموز ، وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفيا لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون أمام حركة العلاقات ، كهؤلاء الصبية القادمين الى اسم الثورة من اقاليم العجز والاحباط والقبح ، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسيه البشر ، فيتهمون الفن بالردة ، ويتهمون الحياة بالخيانة .

صديقي غسان ! كم من صديق ودعت ، ولكن لم اودع مرحلة من حياتي الا في وداعك الاخير ، كان اخر ما انتظر من كوابيس هو ان اقدم لاعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين ، لقد ولدت قبل ذلك ، ولكنك انت الذي اعلن ميلادي ، لم اقل لك : شكرا ، فقد كنت احسب العمر اطول .

الان نقول : ادب الارض المحتلة .. ها .. ها ! ولكن الحالة كانت تختلف عامئذ ، فقد كنا مجموعة من شباب دون الثلاثين نفتقر الى ادنى مقدمات الرد العملي على الهزائم التي يعاصرها وعينا وعارنا ، وكنا نحاول كتابة الشعر دون ان نعي انه شعر ، كنا نصرخ ، نتوجع ، نحتج ، فلم نملك اداة تعبير اخرى ، وكانت اغلبيه مواطنينا تسخر منا ، لانها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفة لا يليق بها الاعجاب ، صبيان يكتبون شعرا ، وكان لقب « شاعر » طموحا قاسيا يعذب ، وفي أحسن الاحوال كان بعض المعلمين يقول : مبتدئون لهم مستقبل ، حتى العدو نفسه لم يكن يكترث بنا بشكل جاد ، وفي الامسيات الشعريه التي كنا نقيمها في القرى كان الفضول والاعتبار السياسي وبنات المدرسة هي التي تشجعنا ، فقد كان الشعر « المعتبر » .. الشعر المقبول ، آنئذ ، لدى الناس والصحف هو الشعر القادم من الخارج .. هو الشعر المصنوع خارج الارض المحتلة ، وكانت النجوم الشعرية الرائجة في العالم العربي هي ذاتها الرائجة لدى صحف العدو باستثناءات قليلة ، ولم نسأل يوما : كيف يملك الشعر كل هذه القدرة على الاحتيال فيكون مطرب الاضداد ؟ وبقينا مجهولين ...

الى ان قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة : الاعلان عن وجود شعر في الارض المحتلة ، فانقلبت العلاقة داخل الارض المحتلة وخارجها ، ومشى التطرف الى نقيضه المتطرف : لا شعر الا في الارض المحتلة !!

الفضيحة معروفة ، ولا اضيف هنا جديدا ، وساعترف بأن شهادتي لا تتمتع بأية قيمة عدا قيمة الاعتراف : نحن الذين كنا نكتب ما سماه غسان « شعر المقاومة » لم نكن نعرف اننا نكتب « شعر مقاومة » وقد دهشت ، قبل سواي ، بهذا الشغف السياسي بما نكتبه ، كل شيء قابل للتفسير كأن نقول: مرحلة تاريخية معينة انفتحت فيها النفسية العربية الجريح على تقديس كل ما يرد من ارض فلسطين ولكن ... ولكن بعضنا داخ من اللذة ، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين ، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق ، وبعضنا ادرك انها موجة وتنكسر ولا يبقى من هذا الزبد غير الشعر الحقيقي ، ويومها كتبت : « انقذونا من هذا الحب » ..

ولكننا نعرف جيدا ان محاولات الغاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسية او بكائيات يكتبها شباب من الارض المحتلة ، قيمتهم الفنية الاساسية هي انهم يعيشون في الارض المحتله ، ليست من صنع غسان كنفاني .

ان ما فعله غسان هو كسرالحصار المضروب حول اوضاع العرب في الارض المحتلة ، واضاءة كل موقع صمود يمارسه ابناء الشعب الفلسطيني هناك ، وكان الشعر ، ولا يزال ، احد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود .

وكان اكتشاف العرب بأن العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية ويحبون بلادهم ويكرهون الظلم اكتشافا مذهلا .. مذهلا حتى الخزي ، ومع ذلك ، اتاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الاحساس بالانتشار والتغلب على الاسوار ، وكان وعي

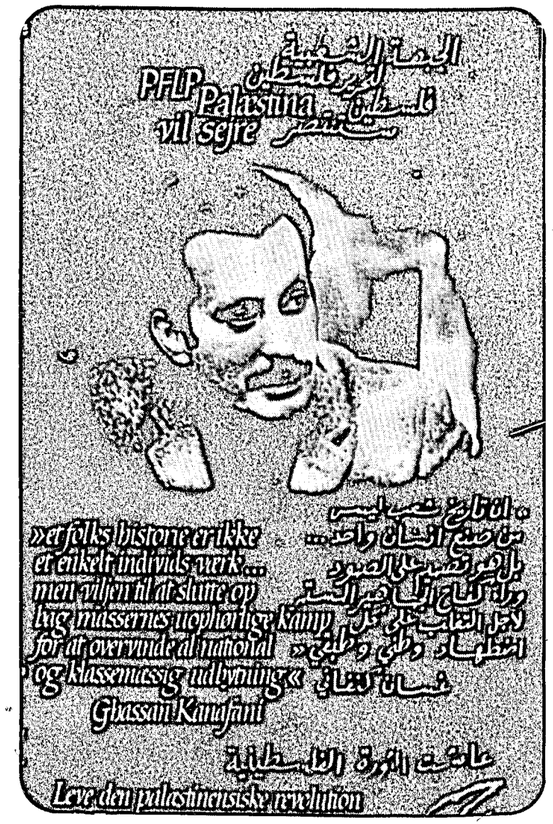


اصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع اليهم حافزا لنموه وتطويره لدى البعض ، وعقبة امام تطويره لدى البعض الاخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة .

لقد دل غسان كنفاني الرأي العام العربي على ادب الارض المحتلة ، واما المبالغات واختلال الموازين فتلك مسألة تخص الذين درسوا ما قدمه غسان ، لم تكن لفظة « مقاومة » رائجة في الشعر هناك قبل ان يطلقها غسان عليه ، وهكذا ايضا دل المسمى على اسمه ...

واذا كان غسان كنفاني قد شمل ، بهذه الصفة ، كل من كتب باللغة العربية في الارض المحتلة ،فلان افراحه بما يجد كانت تشمل الكتاب واشباه الكتاب ، والمقاومين واللامقاومين لان افراحه كانت تشمل اللغة العربية في فلسطين المحتلة ، ولذلك ، يمكن لفت الانظار الان الى ان بعض الاسماء الواردة في مقالات غسان كنفاني عن الادب في الارض المحتلة لا تحتل اكثر من فاصل هامشي في حياة العرب هناك ، وبعضها يحتل هامشا سلبيا يتناقض مع تقدير الوهلة الاولى .

وفي الوقت الذي كان يكشف فيه غسان كنفاني غطاء السر عما يكتبه كتاب الارض المحتلة العرب ، كان يدرس نقيض هذه الكتابة واحدى مواد محاوراتها : الكتابة الصهيونية ، ودورها في تشكيل الوعي والكيان الصهيونيين ، وبكلمات اخرى : كان يدرس فاعليه الكتابة لدى العدو ، فقدم بذلك اول دراسة عربية عن واحد من اخطرالموضوعات الصهيونية ، وكان بذلك جديدا وكاشفا ورائدا كعادته .

واذا كانت الصورة التي قدمها غسان عن الادب الصهيوني تفتقر الى تصوير بعض الجوانب المهمة فذلك يعود الى اعتماد غسان على النصوص الانكليزية المختارة من الادب العبري ، واذا كانت هذه النصوص المنتقاة وحدها كفيلة بالتدليل على الدور التدميري للثقافة الصهيونية ، فكم ستكون الصورة حالكة حين نطلع على الاصل العبري الصريح الذي لا يراعي متطلبات الحرص على الرأي العام خارج الوطن المحتل !

ان دراسة غسان تتمتع بقدرة كبيرة عن التقاط الجوهري وادراك الخصائص الاساسية للادب الصهيوني ، وتشكل حافزا لدى دارسي اللغة العربية لمواصلة خط الكشف الذي اسسه غسان كنفاني .

وقد يكون من المفيد ان نعرف ان الادب الصهيوني هو احد وسائل غسيل الدماغ الذي يتعرض له طلبتنا العرب في الارض المحتلة، ولذلك فانه يحمل امكانية تشكيل المكونات الثقافية للشاب العربي الواقع تحت الاحتلال ، بغض النظر عن اتجاه رد فعله عليه ، فهو قد يؤثر في شده الى مقدمات التعايش مع نمط الحياة الاسرائيلية ومن ثم الى التخاذل او التساهل تجاه ادعاء الحق الصهيوني على ارض فلسطين ، ومن ناحية ثانية في شده الى موقع الرفض لكل جوانب الحياة والفكر الصهيونيين .

**ويا صديقي غسان !**

**ان البياض أمامي كثير ، ودمك الذي يجف ما زال يلون ، لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت أودعك ، جئت ورأيت ، ورأيتك كيف تذهب ، لقد اتسعت مساحة الارض المحتلة ولم يعد ذلك ميزة ، ودورة السجون تدور .. تودع وتستقبل ، وكل أرض ترى استشهاد ابناء شعبي ، ونحن مطاردون في كل مكان ، والكاتب ملعون ومتهم بالحياة والكتابة ، والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفا واحدا ، واين هي الارض غير المحتلة في السكون ؟ وأين هي الارض المحتلة في الثورة ؟**

**ويا صديقي غسان !**

**لم نتناول طعام الغداء الاخير ، ولم تعتذر عن تأخرك ، تناولت سماعة التلفون لالغك كالمعتاد : « الساعة الثانية ولم تصل ! كف عن هذه العادة السيئة » .**

**ولكنهم قالوا لي : قد انفجر !**

**والان ، اكتب اليك دون ان اخشى يد كمال ناصر التي خطفت رثائي لك ، وقال مازحا : لا تنشر هذا الكلام عن غسان كنفاني ، هذا الكلام يليق بي .. وسأقتل قريبا .**

**كان يمزح ؟ نعم ، ولكنه انفجر أيضا ،**

**لا أحد يحيا لنفسه كما يشاء ،**

**ولكننا نراك في كل مكان .. تحيا فينا ولنا ، وانت لا تدري ، ولا تعلم .**